

بحوث في اللغة العربية وآدابها: نصف سنوية لقسم اللغة العربية وآدابها بجامعة إصفهان  
العدد ٤ (ربيع وصيف ١٤٣٢ هـ. ق / ١٣٩٠ هـ. ش)، ص ٦٥-٨٠

## مفهوم الوطن وتجليات الوطنية والوحدة عند سحر خليفة من خلال ثنائيتها: الصَّبَّار وعباد الشمس<sup>١</sup>

محمد صالح شريف عسكري\*

زهرة باقر رولاشاني\*\*

### الملخص

من وظائف الأدب القصصي الحديث، تجسيد حقائق الحياة الانسانية بآمالها وآلامها. فهو خير وسيلة لتصوير ما يجري في المجتمعات البشرية؛ خاصة إذا كانت الحياة في حالة الحرب والمجتمع تحت نير الاحتلال، فتضاعف أهمية دور هذا الأدب في الاهتمام بقضايا الشعب ومواقفه إزاء الأحداث.

ثنائية سحر خليفة الصَّبَّار وعباد الشمس ترسم حياة العرب الفلسطينيين في الضفة الغربية بعد خمس سنوات من هزيمة حزيران ١٩٦٧ م. ومن أهم المواضيع التي تُلقت النظر في ثنايا الأحداث المرويّة في هاتين الروايتين يمكن الإشارة إلى أهم متطلبات الشعب الفلسطيني، وهي: الوطنية، والوحدة والأمل إلى مستقبل الوطن في ظلها.

تكشف الرواية عن مفهوم الوطن عند سحر خليفة الذي يتخذ أبعاداً مختلفة؛ من أهمها: الأرض، الإنسان الفلسطيني، ذكريات الطفولة، والثقافة. وتصور تمسك الشعب الفلسطيني المقاوم بأرضه ووطنه من خلال ذلك، ضمن تبيين ملامحه بين فئات واسعة من الشعب: من الأطفال والشباب والرجال والنساء. وتوضّح أنّ هذا الحس الوطني المشترك بين الشخصيات المختلفة من البسيطة والمتقفة والنوعية وغير ذلك، يقود الشعب كلّهُ إلى الوحدة أمام العدو الغاصب، مع أنهم يعانون من الخلافات الداخلية فيما بينهم؛ لأنّ الوحدة - في رأي الكاتبة - هي الحلّ الوحيد للخلاص من جميع المشاكل التي أنتجها الاحتلال.

هذا، إلى جانب الأمل إلى المستقبل وترك اليأس والحزن والإحباط، ثمّ استنهاض الحس الوطنيّ الذابل، والتضحية لأجل الوطن باعتبارها عوامل هامة ومؤثرة في تحرير الوطن في رأي الكاتبة.

المفردات الرئيسية: الوطن، الوطنية، الوحدة، الصَّبَّار، عباد الشمس، سحر خليفة.

١- تاريخ التسلم: ١٣٩٠/٧/١٢ هـ. ش (٢٠١٠/١٠/٢١ م)؛ تاريخ القبول: ١٣٩٠/٨/٢٩ هـ. ش (٢٠١٠/١١/٢٠ م).

❖ أستاذ مساعد في قسم اللغة العربية وآدابها بجامعة «تربيت معلم» - طهران.

❖ ماجستير في قسم اللغة العربية وآدابها من جامعة «تربيت معلم» - طهران.

## المقدمة

يشكلّ الهمّ الوطني والقومي أحد الموضوعات الرئيسية التي تحتوي عليها غالبية الروايات الفلسطينية، ومنها ثنائية سحر خليفة؛ إذ تدخل فيهما الكاتبة في صلب حياة الناس الفكرية والاقتصادية والسياسية. فمن الطبيعي أن تظهر الهمّ الوطني والقومي كأبرز أعقاب هذه القضية الوطنية. وهذا ما يؤيده محمد معتصم عن روايات سحر خليفة حيث يقول:

تصوغ الكاتبة أعمالها ضمن قضية جوهرية وكنّية مهيمنة؛ إنها القضية الفلسطينية كإطار وكهدف. فالشخصيات الروائية والأحداث والأمكنة متصلة بفضاءات متخيّلة عن فلسطين كقضية سياسية واجتماعية وعسكرية وفكرية وإبداعية، تعلن الكاتبة من خلالها التزامها بقضيتها الأم؛ قضية التحرير والخروج من حالة الاستعمار/الاستيطان، وإعادة الأمور إلى نصابها (معتصم، ١٩٩١م، ص ٥).

تأتي هذه الدراسة كمحاولة للوقوف على مفهوم «الوطن» لدى سحر خليفة، والإجابة عن سؤال رئيسي في هذا المجال وهو: أ ينحصر مفهوم الوطن لدى الكاتبة في إطار المكان فحسب، أم إنها تذهب بهذا المصطلح إلى أبعد من مفهوم المكان؟ تحاول هذه الدراسة - ضمن منهج تحليلي - كشفَ الوطنية وتجلياتها بين فئات مختلفة من الشعب، مشيرة إلى شخصيات سحر الروائية التي تجسّد ذلك الحس الوطني العريق. وكذلك تلقي الضوء على تضامن الشعب الفلسطيني وتوحدّه في وجه العدو الغاصب، مع الإلمام بالدور الهامّ الذي يؤديه الاحتلال في تحويل القلوب المتفرقة مجتمعة ولمّ شتاتها، كما تسعى وراء كشف الوحدة الموجودة في الشعب الفلسطيني بأكمله من الأطفال والفتيات إلى النساء والرجال والسجناء في وجه جبروت الاحتلال.

فالبحث يهدف إلى ما يلي من الموضوعات:

- إبانة صورة الوطن ومعانيه في ثنائية سحر خليفة؛
- البحث عن رؤية الكاتبة عن الوحدة وتبيين تجلياتها في الثنائية؛
- تبيين أهم العوامل المؤثرة في تحرير الوطن المحتلّ عند الكاتبة؛
- تقويم رؤية الكاتبة نحو مستقبل الوطن ضمن اعتقادها بالوحدة والتلاحم.

## خلفية الدراسة

هناك دراسة تحمل عنوان *المراة في الرواية الفلسطينية (١٩٦٥-١٩٨٥م)* (١٩٩٨م) للباحث حسان رشاد الشامي التي بنيت على ثماني عشرة رواية لثمانية من الروائيين الفلسطينيين، منهم سحر خليفة. فيعالج الكاتب فيها صورة المراة في علاقتها بالأسرة والمجتمع والوطن، ويأتي ضمنها ببعض النماذج المختلفة من المراة من حيث كيفية تعاملها في هذه العلاقات؛ كما يعالج الشخصيات النسائية معالجة فنية. فنرى الكاتب يشير إلى روايات سحر خليفة ضمن دراسة الشخصيات النسائية في الروايات الفلسطينية، ويعالج موضوع الوطن ضمن دراسة علاقة المراة الفلسطينية بالوطن، ولكن روايات الأديبة خليفة وخاصة هذه الثنائية تتطلّب مزيداً من التعمق والتروي، مما يمكن أن ينال في بحث مستقل تختص بها.

وكذلك مقالة تحمل عنوان: «مفهوم الوطن ومظاهره في الأدب العربي» بقلم صادق مكي. فيبحث الباحث في هذه المقالة عن مفهوم «الوطن» في المصادر والمراجع القديمة بدءاً بالقرآن، ثم المعاجم اللغوية القديمة، وبالتالي يعالج هذا المفهوم في شعر الشعراء الجاهليين، مستشهداً بنماذج شعرية مختلفة دالة على ذلك.

وفي مجال الأدب القصصي ثمة دراسة تعنون بـ: *مفهوم الوطن في الرواية العبرية المعاصرة: دراسة في رواية "حمامة وصبي"* للأديب الإسرائيلي *مئير شاليف*، للعمير عبدعلي علام أستاذ اللغة والأدب العبري المعاصر المساعد بجامعة المنوفية، حيث يتعرض

الباحث في هذه الدراسة لمفهوم الوطن لغوياً، ويستنتج بأن هذه الكلمة لا تحمل مدلولاً اصطلاحياً يحمل قيمة تزيد عن معناها اللغوي، مشيراً بأنّ هذا المفهوم لا يدل على الاصطلاح الذي يُراد أن يدل عليه لفظ المواطنة. ومن جرّاء تحليله لرواية *حمامة وصبي* يثبت هذه النظرية، ويستنتج بأن محاولات اختلاق الصهيونية لإسرائيل القديمة أمر لا يمكن أن يستقيم مع مفهوم الوطن بمعناه المادي والحسي، وأن محاولات اختلاق الماضي بإقامة الوطن على الذكريات والأساطير هو أمر لا يمكن قبوله بمفاهيم الوطن الحقيقية.

### التعريف بالكاتبة و مكانتها الأدبية

سحر خليفة واحدة من أهم الروائين الفلسطينيين. ولدت في نابلس عام ١٩٤١م، وأصبحت معروفة في مدينتها بسبب موقفها من موضوع تحرير المرأة. تزوّجت في سن مبكرة زواجاً تقليدياً، وبعد مرور ثلاثة عشر عاماً من الإحباط وخيبة الأمل قررت أن تتحرر من هذا الزواج، وتكرّس حياتها للكتابة. وعادت لتواصل دراستها الجامعية، فحصلت على شهادة الدكتوراه من جامعة أيوا، في موضوعي *دراسات المرأة، والأدب الأمريكي (الجيو سي، ١٩٩٧م، ص ٢٢٩)*. وعلى صعيد الكتابة حققت الكثير من الإنجازات الأدبية برواياتها التي توالى وتدرجت بشكل لافت ومهم في مشهد السرد ليس الفلسطيني ولا العربي فحسب، بل العالمي أيضاً. فقد تمكنت من الوصول إلى أرقى دور النشر الأوروبية، ورواياتها مترجمة إلى أكثر من ثلاث عشرة لغة، وتجري عليها العديد من البحوث، ليس فقط على المستوى النقدي الأدبي، بل أيضاً تُدرّس في مجال التاريخ و علم الاجتماع. وقد نالت الكثير من الجوائز والتكريمات العالمية كجائزة «ألبرتو مورافيا» الإيطالية، وجائزة «ثرفانتس» الإسبانية، وجائزة «نجيب محفوظ للرواية» لعام ٢٠٠٦م عن روايتها: *صورة وأيقونة وعهد قديم*. وتعتبر هذه الجائزة أولى جائزة عربية تحصل عليها، وجائزة «سيمون دوفوار» الفرنسية لعام ٢٠٠٩م والتي رفضت تقاسمها مع الكاتبة الإسرائيلية تسفيا جرين فيلد، معتبرة أن القبول بنصف الجائزة يعني نصف اعتراف. وأخيراً نالت الجائزة العالمية للرواية العربية (البوكر العربية) لسنة ٢٠١٠م بسبب روايتها: *أصل وفصل (لحش، د.ت، ص ١؛ وجابر، د.ت، ص ١)*.

كتبت خليفة حتى الآن تسع روايات: روايتها الأولى *لم نعد جوارى لكم* (١٩٧٤م) أحدثت صدى كبيراً بسبب دفاعها عن حرية المرأة، غير أن سحر لم تحظ بالاعتراف الأدبي إلا بعد صدور روايتها الثانية *الصبّار* (١٩٧٦م). ثم أصدرت *عباد الشمس* (١٩٨٠م)، و*مذكرات امرأة غير واقعية* (١٩٨٦م)، *باب الساحة* (١٩٩٠م)، و*الميراث* (١٩٧٧م)، و*صورة وأيقونة وعهد قديم* (٢٠٠٢م)، ثم أصدرت *ربيع حار* (٢٠٠٥م)، وأخيراً *أصل وفصل* (٢٠٠٩م) (كريم، د.ت، ص ١).

للكاتبة مكانة مرموقة بين الروائيات الشهيرات اللاتي يهتمن بالأدب النسائي وقضية المرأة، وهي حقيقة تتردد كثيراً بين أقوال الكتاب والدارسين والناقدين. تقول بثينة شعبان - كاتبة سورية وباحثة الرواية النسوية العربية -:

كما أن زينب فواز [كاتبة لبنانية (١٨٦٠ - ١٩١٤م)] هي التي كتبت أول رواية عربية [تحمل عنوان *حسن العواقب أو غادة الزاهرة*] في نهاية القرن الماضي، فإن سحر خليفة هي الروائية العربية الأولى في النصف الثاني من القرن العشرين التي أسست لرواية نسائية تحررية سياسية ومتقنة فناً وموضوعاً (١٩٩٩م، ص ٢١٥).

أما باحث آخر، فيشير إلى مكانة سحر خليفة الأدبية قائلاً:

تعد الروائية سحر خليفة من أهم الروائيات العرب والفلسطينيات. وإلى جانب إبداعاتها الروائية عُرفت بمواقفها في الدفاع عن حرية المرأة؛ سواء كان ذلك على صعيد مدينتها نابلس، أم من خلال تركيزها على الجانب النسوي في كل مؤلفاتها. ومما يعلو بمكاتها هو انتماؤها إلى جيل معروف من الروائيين الفلسطينيين أمثال: غسان كنفاني، ومجى يخلف، ورشاد أبو شاور الذين كتبوا أعمالهم الروائية بأسلوب واقعي وتسجيلي بعيداً عن الرومانسية، وأبرزوا القضية الفلسطينية في إبداعاتهم، وأظهروا أيضاً دور الثورة الفلسطينية في تغيير الواقع الفاسد الذي يحاول الاحتلال تكريسها في فلسطين، وفي الوطن العربي عموماً (أوبشير، ٢٠٠٧م، ص ٢٦٩).

ومن اللافت للنظر أن غالبية روايات خليفة ترجمت إلى أكثر اللغات العالمية، ولكن من الملحوظ عن أعمالها الأدبية هي ترجمة أعمالها الروائية إلى الألمانية، واهتمام الدارسين الألمان إلى هذه الروائية وكتاباتها من بين كثير من الكتاب المعروفين كجبرا إبراهيم جبرا وسميح القاسم، ولهما معرفة بارزة تفوق بكثير معرفة سحر خليفة (الأسطة، د. ت، ص ٤). فتعدّ روايات خليفة جديرة بالدراسة والترجمة لما تحمله من مضامين إنسانية وحضارية وعالمية مثل المقاومة والاحتلال وتحرير المرأة وغير ذلك من الموضوعات، والقضايا التي تهتم شعوب العالم. فليس من العجيب إذ تأتي إبداعاتها في المرتبة الثالثة من حيث الترجمة بعد نجيب محفوظ وغسان كنفاني (أوبشير، ٢٠٠٧م، ص ٢٧٢).

### التعريف بثنائية سحر خليفة

يراد بالثنائية، الروائيتين؛ **الصَّبَّار** و**عَبَادِ الشَّمْس**. فإن رواية **الصَّبَّار** تدور حول حياة عدة عوائل في الأراضي المحتلة: عائلة الكرمي التي تشتمل على أبي عادل وزوجته وابنيهما؛ عادل و باسل وابنتهما نوار؛ وعائلة أسامة (ابن أخت أبي عادل)؛ وأبي صابر وزوجته عيشة؛ وزهدي وزوجته سعدية؛ وما يحدث بينهم من الأحداث والصلات.

تقدّم الكاتبة هذه العوائل وحياتها ممثلة للشعب الفلسطيني الذي يعيش تحت نير الاحتلال الاسرائيلي في الضفة الغربية وقطاع غزة منذ حزيران ١٩٦٧م، وتكشف عن مختلف جوانب حياتهم الفردية والاجتماعية مما يسيطر عليها في ظل الاحتلال من الفقر الناتج عن استغلال مؤسسات الصهيونية، وهكذا من اليأس والخيبة وعدم تمتع المجتمع الفلسطيني بأبسط حقوقه الإنسانية. قد يشتغل عدد من رجال القصة (عادل، أبي صابر، وزهدي) في معامل الصهيونية وفي ظروف قاسية؛ فهم يعملون بجانب العمّال اليهوديين دون أن يكون لهم حقوق متساوية، ودون أن يتمتعوا بأقل الحقوق النفاية. فلا بدّ لهم أن يكتفوا بلقمة عيش و يحتملوا مشاق العمل ولو كان بالغة الصعوبة. وهذه الظروف قد تؤدي إلى رفض بعضهم للتمييز الموجود، ومنازعة العمال الصهاينة، واحتمال السجن والتعذيب والاعتقال، لكن المنازعة لأجل العمل قد تتبدل إلى الكفاح لأجل تحرير الأرض والوطن، لما يصل إليه بعض (أسامة) من التنبه، معتقداً أن رأس المشاكل الموجودة في الأرض المحتلة هو الاحتلال والاستسلام للظلم.

ففي **عَبَادِ الشَّمْس** وهي الجزء الثاني من **الصَّبَّار**، يعمّ هذا الانتباه إلى الآخرين حتى الشخصيات النسائية كليلثة وسعدية و رفيف، فيلتحقن إلى ميدان الكفاح والنضال أمام العدو الغاصب، وقبل ذلك أمام قيود المجتمع و وصاية الرجل. وفي المقابل يعتقد أكثر الشخصيات النسائية أنهن قد وقعن أمام احتلالين: احتلال التقاليد والعادات المتوارثة السلبية، واحتلال العدو الغاصب، فلا بدّ لهن من كفاحين: تحدي قيود المجتمع كالجهد والخرافة والشعوذة والدعاء والنظرة الدونية إلى المرأة، وكفاح للتحرر من نير الاحتلال الصهيوني؛ كما أنّ منهنّ من يلححن على البقاء في الجهل والاستسلام تجاه الظروف الموجودة.

### مفهوم الوطن والوطنية

الوطن بمعنى «المنزل، ثقيم به، وهو موطن الإنسان ومحلّه... وأوطنه: اتخذته وطناً؛ والجمع: أوطان. وأوطان الغنم والبقر: مرايضها وأماكنها التي تأوي إليها» (ابن منظور، مادة «وطن»). وكلمة «مواطن» قد وردت في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ﴾ (التوبة ٥: ٩). وهذا المفهوم على حد قول يحيى الجبوري (٢٠٠٨م) كان ضيقاً في القديم يشمل الحيّ ومحل الإقامة، ثم صار يتسع كلما تقدّم الزمن (ص ٩ و ١٠).

يقدم محمد عبده تعريفاً للوطن في اللغة وعند أهل السياسة؛ فيقول: «الوطن في اللغة محل الإنسان مطلقاً. فهو والسكن بمعنى. واستوطن القوم هذه الأرض وتوطنوها؛ أي: اتخذوها سكناً. وهو عند أهل السياسة مكانك الذي تنسب إليه، ويحفظ حقك فيه ويُعلم حقه عليك، وتأمين فيه على نفسك وألك ومالك» (محمد حسين، ١٩٨٤م، ص ٧٠).

أما الانتماء الوطني فيعد من المفاهيم العالمية المهمة في عالمنا المعاصر التي تتجلى في محبة الفرد لوطنه، والاعتزاز بالانضمام إليه، والتضحية من أجله. لقد ارتبط الإنسان منذ وجوده بشيئين هما: المكان والزمان. فالإنسان مرتبط بالمكان من حيث وجود ذاته، وإذا كان المكان يدل على وجود الإنسان في جزء معين منه، فإن الزمن هو الذي يحدد مدى هذا الوجود وكميته؛ ولذلك فالمكان هو الوطن، والانتماء المكاني هو الانتماء الوطني (آل مبارك، د.ت، ص ١).

يتميز مفهوم الهوية الوطنية عن غيره من مفاهيم الانتماء في أنه «حالة سياسية وإرادية خالصة تتسم بطبيعتها الجماعية حصراً، وتقوم على الاتفاق وعن وعي تامّ بين سكان إقليم معين على العيش معاً في مجتمع سياسي يتمتع بالسيادة الكاملة» (محيسن، د.ت، ص ٢).

### الوطن عند سحر خليفة

يتخذ مفهوم الوطن عند سحر خليفة أبعاداً مختلفة؛ من أهمها: الأرض، والإنسان الفلسطيني، وذكريات الطفولة والثقافة. فنعالج هذه المفاهيم فيما يلي:

#### - الوطن/الأرض

الوطن في مفهومه العام - أي: الأرض والمكان الذي يلتصق به الإنسان - يتجلى في بداية رواية الصِّبَّار، ومن خلال تصرّفات بطلها أسامة الكرمي «الشاب المثقف العائد إلى وطنه فلسطين بعد غياب خمس سنوات من اغترابه بمهمة كان تنظيمه السياسي المقيم خارج الأرض المحتلة قد كلفه بها» (الصالح، ٢٠٠٤م، ص ٨٤)؛ إذ تفصح الرواية عن وطنية أسامة وعلاقته بالأرض وبوطنه عامة من الصفحات الأولى؛ أي: مع وصول أسامة إلى مدينة نابلس، حيث يحاول أحد جنود الصهاينة - ضمن عملية التحقيق - تغيير اسم نابلس العربي إلى آخر عبري، ولكن أسامة يتصدى لهذه المحاولة، ويثبت في الحوار اسمها العربي؛ إذ يستجوب المحقق الإسرائيلي أسامة عن سبب مجيئه إليها سائلاً:

- ولماذا انتقلت أمك إلى شخيم؟

- البطل (Protagonist Center Characters): ذلك الشخص الذي يلعب دوراً رئيسياً في القصة أو المسرحية. وتنطوي نفسه على صفات وقوي يتعاطف معها القراء أو النظارة دون غيره من الشخصيات» (وهبة والمهندس، ١٩٨٤م، ص ٧٨).

- تعجبها نابلس.

- ولماذا تعجبها شخيم؟

- نابلس تعجبها لأنها مليئة بالأقارب

- ولماذا عدت من دول البترول إلى شخيم؟

- عدت إلى نابلس لأن الوالد مات... (خليفة، ١٩٩٩م، ص ١٤).

يؤمن أسامة بأرضه و وطنه، وهذا الإيمان الراسخ يجعله أن يصرخ ووطنيته حيث تقتضي الظروف؛ فيثبت على موقفه، ويلجأ على انتمائه إلى وطنه فلسطين في مواجهة الجندي الإسرائيلي حينما يبحث عن سبب طرده عن الوطن ويقول:

«لأنني فلسطيني... فلسطيني» (خليفة، ١٩٩٩م، ص ١٦).

ونراه في مقطع آخر من الصبّار يستغرق في هذا الحس الوطني الخالص، ويكي على البلد و لما فرض له الاحتلال من الويلات والمصائب. فتخاطبه أمه متعجبة حين ترى بكاءه على الوطن:

«أنت تبكي؟! مات أبوك ولم تبك، وبكيت أمام الناس؟ ماذا يقول الناس؟

- بكيت على الناس يا أمي. بكيت على البلد...» (المصدر نفسه، ص ٢٩).

مما تقدّم، يمكننا القول بأنّ أسامة إنسان وطني مخلص، يرجّح هموم الناس على همومه، بل معاناته معاناة الناس وأبناءه؛ إذن ليس من العجيب إذ نراه يبدي قلقه لمستقبل البلد والناس في مواضع مختلفة من الثنائية، خاصّة إذ يرى أوضاع البلد والناس والشباب الذين اضمحلّوا بعد الاحتلال. فيكي بصمت عند ابن خاله باذلاً قصارى جهوده لاستنهاض الحس الوطني الذابل فيه وينذره بقوله:

ماذا حدث للبلد؟ ماذا حدث للناس؟ ماذا حدث لكم؟ لقد تغيرتم. حتى الصبية يدخنون في الشوارع، ودعايات الأفلام الفاضحة

تلطّخ الشوارع، والناس يلتهمون الكثافة وبيتسمون - وأنت أيضا تبتسم - ماذا حدث لكم؟ ماذا حدث للبلد؟ أبطروكم؛

استوعبوكم ولا أرى في عيونكم ومضة خجل... تغيرتم. كل شيء تغير، والقدارة تملأ شوارعكم... المهم أنكم تغيرتم. احتلال هذا

أم انحلال؟ (المصدر نفسه، ص ٢٧).

وفي اللوحة الأخرى من لوحات الصبّار يحدث نقاش بين أسامة وبين عادل حول الوطن والناس والثورة. فنرى أسامة يقف في وجه عادل، ويحدّره بسبب نسيانه للبلد والناس وقضية الاحتلال، ويتهمه والناس بالتخلف عن الركب الثوروي، في حين يرفض آراء عادل عن الوطن والناس والصمود مذكراً بأنّ الثورة لن تأتي من الخارج، وأنهم - أنفسهم - هم المسؤولون عن الصمود أولاً وأخيراً. وحينما يردّ عادل بأنّ الثورة لن تتحقق مع الجوع، يطرح نظرية معروفة تدلّ على أنّ الجوع يفجّر الثورة (المصدر نفسه، ص ٨٣-٨٤). فهو يرفض نظريات أمثال عادل الذين يرجّحون الرفاهية في ظل الاحتلال، وأمثال شحادة الذين يرجّحون الهجرة عن الوطن بدل البقاء والصمود، بل يعيب عليهم وعلى تعريفهم للوطنية والقومية (المصدر نفسه، ص ٧٥).

وبعد محاولاته الدؤوبة للدعوة إلى الوطنية والتشبّث بالأرض، يدفعه إيمانه هذا بالأرض وبقدرة شعبه على التطهر من الذوبان في اليومي والطارئ إلى قتل أحد الضباط الصهاينة، ثم يفر ويلجأ إلى إحدى القرى المجاورة، فيجد نفسه في أحضان أرضه، وهو يعبر لها عن اشتياقه وفرحه العارم بلقائها، وهو يناجي: وقد عدت لهذي الصخرة؛ لهذي الحفرة؛ فلهزّ الأرض لوقع قدمي إذا مشيت (الصلاح، ٢٠٠٤، ص ٨٥).

لا ينحصر الانتماء إلى الأرض والجذور العربية في المناضلين أمثال أسامة فحسب، بل نسمع إيقاعه بين سائر فئات الشعب؛ منهم: أبو الرعد الفلاح، و أبو الفوارس المدرّس. فأبو الرعد ممثّل الفلاحين القرويين الذين يحملون شحنة وطنية هائلة. فهم الذين يطالبون أسامة بإعادة قصة قتله للضابط الإسرائيلي بعد اللجوء إلى المزرعة والفلاحين، ويشجّعونه لعمليته البطولية لكي ينسو أحقاد صدورهم وجراح قلوبهم. فحينئذٍ يدعو أبو الرعد الفلاحين لاسترجاع أرضهم، وهو يهدر كرعده هدار حينما يقول: «... هذه الأرض لكم. استرجعوا بقرار من هيئة الأمم. استرجعوا بأبيات الشعر وأغاني العودة، وصلّوا لله مليون ركعة بدون مبرر. فلن ينصر الله إلّا اليد المشدودة على الزناد» (خليفة، ١٩٩٩م، ص ١٥٠).

وأبو الفوارس، هو المدرس الفلاح الذي ذاق مرارة التشريد والسجن والمؤامرة تحت الاحتلال، ودخل السجن أكثر من مرة طوال حياته. هذا ما يبدو جلياً من خلال حوار مع باسل (أخو عادل الكرمني) بعد خروجه من السجن وعودته إلى المزرعة والفلاحين. فنراه يحكي حياته المؤلمة لباسل، وما مرّ به من ويلات لأجل الوطن المحتل. ويشير بجرمه - أي: الوطنية والإيمان - بروح الشعب صارخاً: ..أتري هذا الرأس؟ شابٌ لكثرة ما رأى. وكم رأينا حروب ومذابح ومؤامرات وتشريد. وحملنا السلاح وحملنا المبادئ، وحملنا قلوبنا على كفوفنا، وقلنا يا أرض اهتزي، فاهتزت، وعن عزم الهزّات تشققت، ووقعنا في الحفرة تلو الحفرة... ما هو ذنبي؟ ما هي جرمي؟ ألأني آمنت بروح الشعب؟... ألأني آمنت بتوجيه الأبناء؟ (خليفة، ٢٠٠٨م، ص ٣٣٩).

#### - الوطن/ الإنسان

بما أنّ أهل البلد هم الذين يصنعون الأجواء المختلفة بكل أفراحهم وأحزانهم، جهلهم وذكائهم، فيمكن أن نعدّهم جذراً آخر من جذور الوطنية إلى جانب الأرض. هذا بالعناية إلى أنّ هذا العنصر لا يمكن تجريده عن العنصر السابق، لما بينهما كثير من التداخل والتماسك، ولكن قد يتجلّى مفهوم الوطن من خلال أهل البلد الذين يسكنون في أبحاثه. وهذا المفهوم من مفاهيم الوطن هو الذي تحاول الكاتبة رصده من خلال التعمق في الحياة الاجتماعية والاقتصادية، وترسيم آلام الناس وخاصة الأطفال الأبرياء منهم. هذا العنصر ينعكس بوضوح في الصَّبَّار في المشهد الذي يدخل أسامة بيت أبي صابر، وهو يبحث عن عادل. فيواجه صورة مؤلمة لحياة الأطفال؛ إذ يرى طفلة في الرابعة بجوار سطل الزباله، وهي تلعب على الأرض بخرقة قذرة لا لون لها، وعلى وجهه ماء قذر. فيهتزّ قلبه بجزع ويتساءل: «أهذه نظرة طفلة؟ لماذا يفقد الأطفال براءتهم؟ لماذا تعاديني؟ لكأنها تعرف...!» (خليفة، ١٩٩٩م، ص ٧٠).

ويتكرّر هذا التساؤل في ذهنه من خلال المونولوج الداخلي<sup>١</sup> الذي يحتوي أفكاره وأحاسيسه عن أقوال شحادة وأبي صابر ما مرّ به في بيته. (المصدر نفسه، ص ٧٦). وكذلك مثل هذه الأفكار تدور في رأس زهدي، حيث يتحرر من السجن ويرجع إلى حضن الأهل والأولاد. فحينما يرى أنّ الفقر سلب من الزوجة أساورها الثمينة، ومن الابن أحلامه الطفولية، يفكر في نفسه: «لماذا ينهمر الأطفال علينا كالطر، فيعمون قلوبنا، ولا يفعلون الشيء ذاته بقلوب الأغنياء؟» (المصدر نفسه، ص ١٤٨).

١ - Monologue: «وهي وسيلة إلى إدخال القارئ مباشرة في الحياة الداخلية للشخصية، من دون أي تدخل من جانب الكاتب بالشرح أو التعليق... وبأنها التعبير عن أخص الأفكار التي تكمن في أقرب موضع من اللاشعور» (غرکان، ٢٠١٠م، ص ١٧٦).

فالطفل الفلسطيني وحياته الحزينة خير مرآة للشعب الذي يداعب أحلامه تحت وطأة الاحتلال؛ إذ هو يعيش طفولة بائسة، وهو محروم من أبسط مقومات الحياة. كثيراً ما يرى الفاكهة يتمناها، لكن والدته لاتستطيع شراءها؛ لأنّ الأسعار نار الله الموقدة. فتشتعل فتيل الغضب المتوحش في قلب الأم حين ترى الضابط الإسرائيلي يشتري لابنته الشقراء كل ما تشتهي. فتلفظ باللعن والدعاء على العدو الغاصب وزوجه وابنته: «يا ريتها سمّ الهاري على قلبك وقلبها وقلبها! أولادي يشتهون الأسكندنيا، وأنتم تبرطعون كالوحوش السايبة؟! يا ريتها فانية أمة محمد اللي خلت الأندال يسرحوا ويرحوا ببلدنا وحرارتنا! سبعين عين تطرقكم يا عدوين... البلد بلدكم والخير خيركم...» (خليفة، ١٩٩٩م، ص ١٣٢). عناية إلى أن الطفل الفلسطيني يعيش ظروفاً بالغة الصعوبة تذيبه مرارة الخوف والحرمان واليأس، يمكننا القول بأنه رمزٌ للشعب الذي تروح آماله وأبسط حقوقه الإنسانية تحت وطأة الاحتلال، ويوافقنا سليمان حسين (١٩٩٧م) في هذا القول حيث يعدّ الأرض في معنى الدار والبيت وروح الطفولة ترميز نفسي (ص ٦٠).

قد يتخلص مفهوم الوطن في أهل الأرض وساكنيه بأكملهم؛ إذ هم الذين يعيشون في أبحاثه ويقوون روح التحدي والصمود بحضورهم وما يحملون من العقائد والأفكار المعجبة. هذا هو العنصر الهام الذي له دور باهض في تقوية معنويات المناضلين الذين يقفون في وجه الظلم والاحتلال؛ إذ يزرع في نفوسهم بذر الأمل إلى المستقبل، ويحثهم على النضال والصمود. هذا ما يترك أثراً هاماً في استمرار حركة أسامة النضالية، حيث يجعله محولاً لأجل الناس والوطن ويسعى لتحقيق الحرية المفقودة؛ لأنه يأمل بمستقبل البلد وبأن البلد لن يزول، وكذلك يؤمن بأهله الذين يؤمنون بالمستحيل، ويعتقد بأن إرادة الإنسان أقوى من المستحيل، فيناجي الوطنية والقومية من أعماق أفكاره: «هؤلاء الناس، بجهلهم، بحزنهم، بخبزهم الموصوم بدمعة عبرية، ما زالوا أهلي» (خليفة، ١٩٩٩م، ص ٦٣). إضافة إلى ما سبق، نلاحظ أن سكان البلاد هم الذين يعطونها حيوية ونشاطاً بما يخلقون أجواء مختلفة؛ فمن الطبيعي أن يكون تركهم البلاد وما فيها من الأهل والأصدقاء يجعل أبناء الوطن ذابليين، ميتين، وحيدين، ولا مبالين بالوطن وما يحدث له من الوقائع، وبالتالي يجفّ الحس الوطني والوطنية في أهل البلد، وهذا الألم هو الذي يعاني منه باسل حين يطّلع على أنّ سعيدية تريد أن تهجر الحارة بعد اشتراء أرض في الجبل المشمس، وتريد بناء بيت الإسكان فيه، فنراه يقلق ويناجي في نفسه: «ماذا لو هجرت سعيدية الحارة؟ الألوف يهجرون، وسعيدية واحدة من الألوف.. سعيدية معلم هامّ من معالم الحارة، ولا يمكن أن تهجر سعيدية الحارة، لا يمكن» (خليفة، ٢٠٠٨م، ص ٢٣٢-٢٣٣).

### الوطن/ ذكريات الطفولة

قد يتبلور مفهوم الوطن في ذكريات الماضي، خاصة ذكريات الطفولة والشباب التي تتعلّق بمسقط الرأس أو الوطن. وفي هذا المعنى يتداخل مفهوم الوطن بالحنين: حنين إلى الماضي واسترجاع الأيام الماضية. والحنين كما تفسّره المعاجم اللغوية هو: «الشديد من البكاء والطرب، وقيل: هو صوت الطرب كان ذلك عن حزن أو فرح. والحنين: الشوق وتوقان النفس، والمعنيان متقاربان» (ابن منظور، مادة «حنن»). أما من الناحية الاصطلاحية، فمعناه: «الشوق وتوقان النفس مع الطرب والتنغيم، وهو يكشف عن مدى معاناة الإنسان في ديار الغربة بعيداً عن وطنه. فالحنين يُرضي شعف النفس، ويُشبع حبّ الناس للأوطان» (الخليبي، ٢٠٠٧م، ص ١٨).

١- «ليس الرمز إلّا وجهاً مقتعاً من وجوه التعبير بالصورة» (إسماعيل، ١٩٦٦م، ص ١٩٥)؛ أي: «الإشارة بكلمة إلى معنى غير محدد يتفاوت القراء في فهمه وإدراك مداه بتفاوت ثقافتهم» (يعقوب، بركة، شيخاني، ١٩٨٧، ص ٢١٧).



والحنين إلى الوطن ظاهرة إنسانية عامة، لا يستطيع المرء التخلي عنها، مهما بلغ رقيُّه الحضاري، وتطوره المادي، وسموُّه الروحي؛ لأن كل إنسان محب لبيئته ووطنه، وهو متمسك بهذا الوطن، يحن إليه، ويدافع عنه، ويبدل في سبيله كل غال ورخيص. وهذا الحب لم يكن مقتصرًا على قوم دون آخرين، أو مجموعة من البشر دون أخرى، إنما كان عامًّا مطلقاً - فيما نعلم - لم يخلُ منه أيّ أدب حيّ، في تاريخ الفكر الإنساني (حور، ١٩٨٩م، ص ١٨١).

فكثيراً ما تستعين الكاتبة بذكرات الطفولة والشباب لاستنهاض الحمم في وجه العدو الغاصب. فتأتي بهذه الذكريات في أسلوب رومانسي صادق له تأثير فادح في إيقاظ الحس الوطني بين الشعب الفلسطيني. وهذا ما نراها كثيراً في المقاطع الحوارية التي تجري بين أسامة و أبوشحادة (الفلاح القروي الذي ترك أحد أبنائه الوطن، وهاجر إلى إسرائيل بحثاً عن العمل) و عادل. حيثما يتوسل أسامة إلى ذكريات مشتركة فيما بينهم:

..حتى مسعود [كلب المزرعة] تذكّرني، فكيف تنساني أنت يا أبوشحادة؟! طالما حملتني على ظهرك وأنا طفل صغير، وكم لعبت وعادل وشحادة خلف تلك الحظيرة تحت التينة الخرطمانية. وكم لحقتنا بعصاك حين كنا نسلط خرطوم الماء على حظيرة البقر. أنسييتي يا أبوشحادة؟» (المصدر نفسه، ص ٤٠)

ويبدل قصارى جهده ليقنعه بأن الهجرة ليست هي الحل الوحيد للخلاص من المشاكل التي أنتجتها الاحتلال، ويحدّره نسيان الأرض والوطن بالقول:

« - وحدّ الله يا اختيار، قلت لك نترك الأرض لمين؟

تأمله الشيخ وهو يضيّق عينيه الضعيفتين وقال ببرود:

- وهيه الأرض أرضنا؟

- أرض من إذن؟

- لصاحبها يا أفندي.. أنا يا سيدي أجير، طول عمري كنت أجير، لا لي أرض ولا ما يجزنون، وابني كان أجير وما زال. وما دامت الأرض مش أرضي ولا أرض شحادة نموت فيها ليش؟ لما متنا من الجوع ما حدش سأل عنا..» (خليفة، ١٩٩٩م، ص ٤٢).

وفي مقطع آخر من الرواية يمرّ أسامة بالمقهى، ويلاقى فيه شحادة الذي نسي البلد، وأصبحت تصرفاته ككبار الممثلين الأجانب؛ فيتأمل في حركاته ويتذكر ذكرياتهم في الطفولة في مزرعة الكرمي، فيسخر منه مفكراً:

أنسيت الهيثة يا شحادة؟.. برطع يا سيدي وخليّ إسرائيل تخيل وتميل. وأنت يا عادل انزل، انزل، واشرب أرجيلة على حساب

شحادة الشخاخ. وجرن العلف من كان يبول فيه؟ بولّ يا شحادة. بولّ على العروبة والأرض والبلد مادام أمثال عادل يشربون

الأرجيلة على حسابك (خليفة، ١٩٩٩م، ص ٧٩).

### الوطن/الثقافة

قد يتجلّى مفهوم الوطن في الثقافة. والثقافة بمعناها الواسع هو:

مجموع الانطباعات المكتسبة التي تنفعل بها شخصية المرء من حيث هو فكر، وشعور، وتخيل، وكائن اجتماعي يتصرف في بيئته

معينة، وزمن معين. ويستمرّ نفاذها إليه من نشأته وعواملها، ومن الحياة الخاصّة والعامّة، وفقاً لاستعداد مزاجي فيه... وأهم

مقوماتها: الفولكلور دينياً، وفناً، وتقاليده وأحاسيس، وذهنيّة؛ واللغة مدوّنة ومحكية، والنمط التربوي الذي تمّت به المقابسة...

(كرم، ٢٠٠٤م، ص ١١٢ و ١١٣).

وقد تتداخل الأرض والذكريات الماضية بالتراث الشعبي - كجزء من الثقافة - خاصة فيما يتعلق بالمرأة الشعبية؛ إذ هي أكثر تعلقاً بماضيها وحيناً إليه. وهذا ما نلسمه بوضوح في مشهد الحمام من عباد الشمس، حيث تنقل الكاتبة عبر شخصية سعدية صورة معبرة عن حنين المرأة الفلسطينية للماضي البهيج، من خلال استحضارها لبعض العادات الشعبية الاحتفالية التي كانت تمارسها النسوة فيما مضى، وكانت تلك العادات أقرب إلى أجواء الطقوس الاحتفالية؛ حيث تعمُّ الفرحة والمودة بين الناس (الشامي، ١٩٩٨م، ص ٢٦٠). فتقول سعدية في إحدى تدايعياتها:

كانت للحمام أيامٌ وليالٍ. أين منها أيام قبل الاحتلال؟ كان الناس يؤمونه من كل الطبقات والعائلات. وكانت السيدات المترفات يجلعن من الحمام مشهداً يذكر بقصص ألف ليلة وليلة؛ عطور حنّاء، ومناشف مقصّبة يفوح منها المسك والطيب والبخور. زفّات عرائس يتأهّبن لليلة الدخلة، وتُفسّسات يحتفلن بمواليد ذكور. نسوة يتسبّعن يوم الأربعاء، ويقمن الاستعدادات لليلة الحمل الجديد (خليفة، ٢٠٠٨م، ص ٢٣٠).

وهي مازالت تذكر تجاربها التي مرّت بها منذ أكثر من عشرين سنة بعد ولادتها لابنها البكر حمادة، ومازالت تتذكر ما اقترحت لها النسوة من النصائح عن الزنجبيل والبيض لاستحكام العضلات والحلبة لازدياد الحليب. ثمّ تشتدّ حزنها حين ترى وضعية الحمام بعد الاحتلال:

أما الآن، فعن جيوش الصراصير التي تحتلّ حيطان الحمام فحدث، وعن الرطوبة والعفونة وشتى الآلاف فأحكك ولا تتحرّج. وتلك الأرائك، حيث كانت ترتاح النسوة المعطّرات بعد معركة التدليك، أصبحت أترأ بعد عين. أكياس غفنة تسطّحت أركانها، وانساب من داخلها القشّ والتّبنّ والبقي... (المصدر نفسه، ص ٢٣٢).

وفي المشهد نفسه تتلاحم ذكريات الطفولة مع الثقافة الدينية، حيث تتذكر سعدية أيام طفولتها حينما أصيبت المدينة بالجفاف؛ فتذكر بأن الناس يمشون ويرتقون طرقات ترابية نحو الجبل، ويصلون إلى المزار. يجتمعون في حلقة ضخمة حول قبر أحد الأولياء ويدعون لرفع الجفاف والسوء؛ إذ يردّون: «يا مغيثُ أغثنا وارفع عنا السوء!». ويكي الأطفال وأيديهم الصغيرة ممدودة نحو السماء، ويكي الرجال دموع التأثر والخشوع، ويقرع الناس بالطبول (خليفة، ٢٠٠٨م، ص ٢٣٦ و ٢٣٧).

هذه الثقافة التي يتعلق بها الإنسان الفلسطيني تجعله أن يتحمل ويلات الوطن المحتل من الفقر والجوع والظلم، ولا يتبغى لبلدانه بدلاً. بل تشجّعه ليستعين بهذا الرصيد الضخم كوسيلة لتقوية حبّ الوطن والأرض، وبثّ روح الوطنية في سائر أبناء الشعب.

هذا الذي تظالنا الكاتبة عند الجلسات الحميمة التي تعقدها النساء الشعبيات في حمام البلد؛ إذ يشتركن في الطعام والرقص والهمّ والحزن والآلام، وينشدن الأهازيج الشجّية التي تتضح بعبير المقاومة الباسلة، وتمجيد البطولة والتضحية؛ فتزرع في النفس بذور الأمل (الشامي، ١٩٩٨م، ص ٢٦١). فتدويّ أصوات النساء في فراغ حمام نابلس الكبير:

«...مرّوا عليّ وأنا بتحنّنا / بدّلوا الحنّنا بدمه وبهمه / صرت أنادي الليل / والغربة والناس / وأحس الأيام وأحلم بضمّه» (خليفة، ٢٠٠٨م، ص ٢٤٠).

#### الوحدة:

لفظة «الوحدة» في اللغة تعني التوحّد والانفراد (ابن منظور، مادة «وحد»)، وتستخدم في المنظور الاجتماعي والسياسي بمعنى الاتحاد والتلاحم، وتتخذ صفة القومية وما شابهها (كاظمي جزستاني، ١٣٨٧م، ص ٥٢).

### تجليات الوحدة في ثنائية سحر خليفة

#### - الدعوة إلى التوحد والتضامن

مما لا شك فيه أن تحرر الوطن المحتلّ أمنيةً لن تتحقق مع وجود الخلافات الداخلية والحزبية، بل تتطلب مساهمة جماهير واسعة من الشعب، وتحتاج إلى التضامن والمشاركة والعمل الدؤوب. فلا موضع للتعجب إذ نرى أسامة يشكو من تفرّق الناس وشتات قلوبهم، بعدما يرجع إلى الوطن، ويتدقّق في أحوال الناس، ويرى أن إسرائيل خيم على البلد، وحتى البضائع أصبحت إسرائيليةً. فيحدّث نفسه ويشكو من الانفراد:

..وكيف يهدأ القلب الموجه! مراحل الغضب تغلي في شتى بقاع الأرض، وهذه الأرض تموت من شدة الصقيع. الأرض: جريمة نحن مرتكبوها؛ والشعب: خدعة مقلب شربناه. شربة تجرعناها، وحسبت علينا قضية، وحسبت علينا ثورة. اليد الواحدة لا تصفق. وأنا واحد. أنا واحد! (خليفة، ١٩٩٩م، ص ٢٤).

وهذا ما نلمسه من بين أقوال باسل بشكل ضمنى؛ حيث يستجوب أخاه عن كثرة عددهم تجاه القوّات الاحتلال، فهو يبدي عن تفائله لمستقبل البلد، وبأنهم سيكثرون ويكبرون والبلد سيكبر، وبأنّ: «الثورة لن تأتي من الصين... نصنعها نحن» (خليفة، ٢٠٠٨م، ص ٥٩).

لا تنحصر الدعوة إلى التوحد في وجه الظلم في أسامة وأمثاله من المناضلين فحسب، بل نسمع مثيل هذه الإيقاعات بين أصوات أطفال الحجارة الذين يخرجون من البيوت، ويتحدّون الأعداء في حالات منع التجوّل، ويصرخون أهم متطلباتهم المفقودة التي هي: الحرية، ويدعون الشعب إلى المشاركة الجمعية والمحبة والوحدة بغية الوصول إلى التحرر متضامناً: «الأليف الله أكبر/ الباب باب الحرية/ والجيم جبهة شعبية/.. والميم ميم المحبة/ والواو وحدة عربية» (المصدر نفسه، ص ٨٨).

#### - الوحدة عملياً

تتحوّل الوحدة من الهتافات والدعوات إلى مرحلة العمل والممارسة والجبهة الشعبية (في الجزء الثاني من الثنائية)؛ لأن الشعب يصل إلى الوعي العميق بأنّ جذور المشاكل كلها هي الاحتلال. فيتكئ على نفسه، وعلى ما يحمل في قلبه من الهمّ الوطني، ويسهم في الكفاح العملي لطرد المستعمر من أرضه وأرض أجداده. ولا فرق في ذلك بين الذكور والإناث.

#### - وحدة الأولاد والفتيات تجاه الجنود الصهاينة

تقدّم الكاتبة صوراً رائعة لوحدة الفتيات أمام قوّات الاحتلال في غير قليل من لوحات *عباد الشمس*. فتطالعنا على سبيل المثال بنت أبي سالم التي ترشق في المظاهرة حجر تفتح مفرق الضابط، فتلحقونها بالضباط من شارع لشارع ومن زقاق لزقاق، ثم تمسكها الجندي، ولكنها تفرّ من بين يديه. وأخيراً يأخذونها في الزقاق؛ فإذا بقيت الفتيات تجيء، ويضربن الجندي بالمقاييع الأحجار (المصدر نفسه، ص ٦٨-٦٩).

وفي مشهد آخر تصوّر لنا صورة حيّة لإحدى حالات منع التجوّل، وتصدّي الأطفال الصغار بها؛ كما تصوّر صورة رائعة من توحد البنات والصبيان أمام جنود الصهاينة، وأنهم كيف يخرجون من البيت - على الرغم من صغر سنهم -، ويقفون في الزوايا المعتمّة كالفئران، ويتطلعون نحو الجنود. يتغامزون ويضحكون ويرددون الشتيمة بنغمات مختلفة. يمسك الجندي بصبيّين من عنقيهما

كزُغوليين مفتوحين الريش. يُركبهما في سيارة الدورية بعد أن يُشبعهما صفعاً. والبنات يطلبن على عُلب السمن الفارغة، والصبيان يهتفون: «ثورة ثورة حتى النصر. ثورة ثورة حتى النصر» (خليفة، ٢٠٠٨م، ص ٨٨).

يريد هؤلاء الصغار استمرار طريق المناضلة المثقفة السجينة "لينا الصفدي" أخت المناضل "صالح" المعتقل في سجون الاحتلال التي تنتمي إلى إحدى الخلايا الفدائية، وتقوم بتوزيع المتفجرات. فيطوّقون الشارع، ويسحبونها من فراشها في منتصف الليل عقب عملية أسامة التي استهدفت نسف باصات العمال (خليفة، ١٩٩٩م، ص ١٥٦).

ف"لينا" ومثيلاتها من النساء غيرن المقولة المعروفة: «السجن للرجال» بسبب ما أثبتته من صلابة وبطولة، وتضحية إزاء كل المحاولات التي تمارسه سلطات الاحتلال عليهن. فهذه الموقف البطولية التي أبدتها المرأة تجاه قضيتها من الصمود والمقاومة والسجن والتعذيب، أعطتها موقعاً متميزاً في مقاومة الاحتلال، وجعلت أولئك المترددين من المثقفين اليساريين أمثال "عادل الكرمي" الذين يؤمنون بالحلّ المحليّ للقضية الفلسطينية، يشعرون بصغرهم أمام المرأة وتضحياتها (الشامي، ١٩٩٨م، ص ١١١).

وفي الصفحات الأخيرة من *عباد الشمس* يتضامن أبناء الشعب كلهم، ويشتدّ التلاحم والتوحد فيما بينهم، خاصة بين الأولاد الذين يتصدّون جنود الصهاينة بأقل إمكانياتهم التي هي الحجر والمقلع المقلعة. فترى:

بعضهم يلبّون الرؤوس بالحطط، وبعضهم يلبسون طواقي مصنوعة من جوارب مثقوبة من جهة العينين والشم. يتقدّم الأولاد دفعة واحدة، تتناثر الحارة في كل اتجاه، مقاليع تصوب لأعلى؛ حيث يربض الجنود فوق أسطح البنايات. يتراجع الجنود، يهجمون. يتراجع الأولاد ويحتفون من أفواه أزقة المدينة القديمة... يصرخ الأولاد: اضرب. زجاجة مليئة بالنفط وسط الشارع. يتراجعون. يتجمعون. قنبلة غازية تنفجر. شظايا. يعرج ولد، ينسحب. تنكفي نكفة فوق قنبلة، فتحبس غازها (خليفة، ٢٠٠٨م، ص

٣٨٤-٣٨٣).

#### - وحدة النساء

إنّ ما يلفت انتباهنا في الثنائية هو أنّ الاحتلال إلى جانب ما يفرض على الناس من المشاكل والصعوبات، يقوم بدور إيجابي في تسريع حركة الثورة والتحدّي في وجه جبروت الاحتلال؛ إذ تكسر كثيراً من حواجز أقيمت بين الناس كعقبة من عقبات الاحتلال (فَلرَبِّ ضارّة نافعة) «ففي الأوقات العصيبة واللحظات الحاسمة والمواقف الجريئة تتلاشى الخلافات الصغيرة بين أبناء الجرح الواحد، وتتطهر القلوب، وتخلع النفوس ما علق بها من غبار البغضاء والكراهية، لثرتل نشيد التضامن والتعاون والألفة» (الشامي، ١٩٩٨م، ص ١٠٦). وهذا ما نلمسه بوضوح بين سعدية وجاراتها في اللوحة الثانية عشرة من *عباد الشمس*؛ إذ تصوّر الكاتبة أمّ تحسين (إحدى جارات سعدية) وحالاتها أثناء حالة منع التجول؛ إذ ترى بأنّ الجندي يضرب "رشاد" (ابن سعدية)، فتشفق قلبها على الابن، فتمدّد رأسها من الشباك وتصحح وتدعو على الجندي وعلى أولاده. فراها تنسى ما يجري بينه وبين سعدية من الكراهية والبغضاء، بمشاهدة العدو الخارجي المشترك، مع أنّ أم تحسين كانت تحسد على سعدية إثر انخراطها في الحياة العملية بعد استشهاد زوجها، وتهدفها بأنواع السباب والأكاذيب، ولكن نراها في تلك اللحظة الجريئة تنسيان الخلافات الداخلية، وتبادلان صحون الطعام إحداهما للأخرى، وتفكران في الهدف المشترك. فتجمع الاثنتان أولادهما على أسطح البيوت، تمسك كل واحدة بطبلة، وتملأ الحارة بالزغاريد والتهافتات وأغان يردها الأولاد في المظاهرات: «...أمنت بالشعب المضيق والمكبّل، أمنت بالشعب المضيق والمكبّل... وجعلت جرحي والدماء، في السهل والوديان جدول... وحملت رشاشي، آهاهاها لتحمل بعدنا الأجيال منجل» (خليفة، ٢٠٠٨م، ص ٩٥).

وفي اللوحة الرابعة والعشرين من الرواية نفسها تبرز الوطنية بالوحدة في مشهد يحدث في حمام نابلس؛ حيثما تدخل خضرة حمام البلد (وهي إحدى الشخصيات المنحرفة التي انغمست في الرذيلة تحت وطأة الظروف الاجتماعية، أو الاقتصادية أو النفسية الصعبة). فتجري بينها وبين النساء كثير من الحوارات التي في أثنائها تهجم خضرة على نابلس وأهلها قائلة: «إنتويا أهل نابلس مدللين ونواعم، ووجوهكم لا وجوه جدعنة ولا مراجل. ويقولوا عليكم جبل النار؟ على إيش خيبتي عليكم؟ إحنا جبل النار، مش إنتو» (المصدر نفسه، ص ٢٤٨). فتتصير النسوة من أقوالها، وتتصدأها أم فتحي للهجوم متذكرة بتاريخ نابلس العريق:

عيب يا خضرة...! نابلس طول عمرها جبل النار. من أيام الإنكليز ورجالنا يا موت قلبي في الجبال مشردين، بين الصخر والشوك والصبر، والله أعلم بحالهم. ونسفوا دورنا وحبسوا رجالنا وشنقوهم وذوقونا الأمرين. وإذا كان الولد عندكم ببطح جمل، الولد عندنا ببطح عمارة شالوم. بتقف بالمقلية حجر يوصله لتل أبيب (المصدر نفسه، ص ٢٤٩).

ثم تعيد النسوة إلى وحدة الصف، فيرجع الهدوء إلى النفوس كلها إلا نفس خضرة التي تستمر بإسائاته. فتزيد شك النساء عنه وعن مهمته، فيمنعن من خروجها من الحمام إلا بعد أن تتجاوز على أسئلتهن، ولكنها لن تنطق وتستمر في كَيْل التهم والشتائم. فتزداد الشك بأنها جاسوسة. فلم تبق في الحمام يد إلا امتدت لتضرب رأسها (خليفة، ٢٠٠٨م، ص ٢٥٢-٢٥٦).

تطالعنا اللوحة الأخيرة من الرواية نفسها وجهاً آخر من أوجه تضامن النساء الفلسطينيات والشعب الفلسطيني بأكمله، وذلك أثناء عرضها لردّات فعل الفلاحين، إثر مصادرة قوات الاحتلال لأراضيهم واستيلائهم عليها، بعد إبادة المحاصيل، وقطع المياه، وتهجير الأهل؛ إذ يأمر الحاكم العسكري كل ذكر من سن الثالثة عشرة أو ما فوق، بأن يذهب إلى ساحة المدرسة في القرية. وهناك تكوّم الرجال صفوفاً مرصوفة على الأرض، والجنود يعملون فيهم ضرباً وتنكيلاً. يستفزّون هذا ويصفعون ذاك. وتظهر سعدية بين الجموع؛ فإذا بها ترى (في كل الوجوه وجه رشاد) (الشامي، ١٩٩٨م، ص ١٠٦).

فهنا يبلغ تضامن النساء الفلسطينيات إلى ذروتها؛ إذ يتوحّدن كلهن - من البسيطة والمتقفة - مع سعدية التي صودرت أرضها، وتبحث عن ابنها رشاد. فنرى "ريف" الصحفية المثقفة تبقى إلى جانب سعدية تؤازرها وتهدئها بأقوالها المؤلمة، وبأنها ليست الأم الوحيدة فحسب، بل كل النساء أمّهات مثلها. فتتوحد النساء، وتصبح كل واحدة أمّاً لـ "رشاد"؛ إذ «تصرخ سعدية "ابني". لحقت بها النسوة، كل واحدة تصرخ ابني... وبدأت سعدية تضرب، والنسوة تضرب. حجارة، حصي، تراب، شظايا، زجاج، صراخ النسوة، ضرب وحجارة ومقاليع». (خليفة، ٢٠٠٨م، ص ٤٢١).

#### - وحدة السجنين

إن السجن هو امتداد لنضال الفلسطيني المهتم بالأرض والوطن، بل أرفع من ذلك، هو جزء من واجب وطني يجعل على عاتق كل إنسان؛ وهذا ما يعتقد به باسل (خليفة، ١٩٩٩م، ص ١٢٥) الذي يجتاز مرحلة القول إلى العمل، حيث يشارك في المظاهرات، ويردّد بعض الشعارات في تشجيع الشعب إلى استمرار المقاومة؛ ومن جرّائه يُعتقل في سجون الاحتلال. وكذلك "صالح الصفدي" المعتقل في سجون الاحتلال بسبب انتمائه الثوري.

بالنظر إلى هذه المعتقدات الوطنية الراسخة في الشعب الفلسطيني، من المفروض أن تشتدّ تجليات الوحدة والتضامن في المعتقلات، الأماكن التي تحفظ في حدودها ذوي الإرادة القوية الذين يحملون الحس الوطني الحاسم. فهم يحتفظون بالتضامن والتوحد فيما بينهم، بحيث لا يسمعون بأي أجنبي يهدّد تضامنهم. فمن الطبيعي أن لا يعتمدوا على زهدي بدو دخوله السجن،

ذلك العامل البسيط الذي اعتقل في السجن بسبب ضرب العامل اليهودي "شلومو" بالمفك أثناء العراك الذي ينشب بين العمال في المعمل. فهو يضربه بسبب إهاتته عليه وعلى العاملين العرب وتسميتهم بـ «مخربين عرافيم ملوخلخيم»<sup>١</sup> (خليفة، ١٩٩٩م، ص ٩٤). حينما يدخل زهدي غرفة رقم ٢٣ في السجن، يواجه بعدم اهتمام السجن إليه، بينما لا يرحب به أحد، بل ينظر المعتقلون إليه بتوجس، وعلامات الاستفهام مرسومة على وجوههم. فهو يعاني من تجاهل بقية المعتقلين في الغرفة بسبب عمله في إسرائيل، ويحسّ بالغرابة؛ إذ يرى المعتقلون يجتمعون في حلقات مستديرة، ويمزحون ويضحكون، وهو يأكل عشاءاً وحيداً ولا يعابأ به أحد (أيوب، ١٩٩٦م، ص ٥٥ و١٢٥). فيقترب منه ثلاثة من المعتقلين، ويسألونه أسئلة عديدة، ويبحثون عن سبب اعتقاله وعلّة ضربه لشلومو. يتكرّر هذه العملية ليتأكدون منه ومن مهمته في السجن ومن أنه جاسوس أم لا. وفي النهاية يؤدي هذا التوحد والتضامن إلى التعرف على الجاسوس الحقيقي فيما بينهم، حيثما «... يجرّون رجالاً ويجسونه في الزاوية... واستمرت عملية الضرب أكثر من ربع ساعة. وتورّمت عينا الرجل، ونزل دمه، وتهاوى على الأرض، والأقدام تركله في كل مكان...» (خليفة، ١٩٩٩م، ص ١١٢). وأخيراً يعترف الرجل بمهمته كجاسوس. فيطيب المعتقلون خاطر زهدي، ويبدأ بالدراسة ويحصل على الإعدادية في السجن.

فعلى ضوء ما تقدّم اتضح أنّ حفظ التضامن والتوحد هو الحل الوحيد الذي تستلزمه الكاتبة للتحرر من قيود الاستعباد، وهو الذي يجعل الشعب يبدأ واحدة في الشدائد، ويمكّنهم من السيطرة على عدوهم الغاصب. هذا ما يشير إليه محمد معتصم في تأييد ما أشرنا إليه قاتلاً: «الحل لدى سحر خليفة يكمن في خلق وحدة متوازنة اجتماعياً، والابتعاد عن السجلات السياسية الخطابية، والانتقال إلى الفعل البتاء» (١٩٩١م، ص ٥).

بالنظر إلى ما عرضت الكاتبة أثناء الثنائية من الأحداث والوقائع، يمكن القول - في رؤية شمولية - إن واقع الثنائية لا يختلف كثيراً عن واقع الحياة الاجتماعية اليومية؛ لأن الكاتبة تنحاز انحيازاً تاماً لصالح الواقع، وتطوّع الفن الروائي لخدمة التسجيلية الوثائقية، وتحضر الوثائقية في أعمالها حضوراً مدهشاً خاصة في رواية الصّبار إلى أن يمكن اعتبار الخطاب الروائي فيه وثيقة تاريخية تصوّر الواقع النضالي لأبناء الأرض المحتلة بدقة العدسة السينمائية، دون الإساءة لهذا الواقع وعرضه بواقعية على شكل أسطورة (حسين، ١٩٩٧م، ص ٥٣ و٥٧).

### نتائج البحث

١- الوطن في رأي الكاتبة ليس قطعة أرض يعيش عليها الإنسان فحسب، بل يُعرّف بالأهل والأحباب الذين يعيشون عليها؛ أي: هو الأرض، والناس الذين يلتصقون به. وأبعد من ذلك يتجلى في ذكريات الطفولة والشباب والحين إليه، وكذلك الثقافة التي نموا عليها؛

٢- يمكن القول بأنّ الكاتبة تسعى من خلال عرض مظاهر الوطن في أثناء الرواية إثبات أن هناك فارق كبير بين الوطن الموجود على مدار السنين، ووطن يُختلق في لحظة، بفعل الذكريات والأساطير؛ الأمر الذي سعى الصهاينة لتحقيقه باحتلال أرض فلسطين التاريخية والدينية؛

٣- يمكننا من خلال نظرة متأملة إلى نصّ الثنائية أن نستنتج بأنّ الوحدة في رأي الكاتبة هي الحلّ الوحيد للخلاص من جميع المشاكل التي أنتجها الاحتلال. كما تؤكد الأدبية بأنه لا يجدر بالشعب الفلسطيني أن يقف عند حدود الأسى والحزن وذرف الدموع وصبّ اللعنات على الأعداء، بل تدعوه إلى التمسك بالتوحد والتضامن الجماعي إزاء الأعداء؛

١- جملة بالعبرية تعني: «عرب قدرون».

- ٤- من أهمّ العوامل المؤثرة في تحرير الوطن في رأي الكاتبة الأمل إلى المستقبل، وترك اليأس والحزن والإحباط الهالك. ثمّ استنهاض الحس الوطنيّ الذابل وتقويته، والتضحية لأجل الوطن باجتياز الخلافات الداخلية، والتمسك بالاتّحاد والتكاتف، وأخيراً الاتّكاء على قدرة الإرادة ومشية الله ﷻ؛
- ٥- للكاتبة رؤية تفاؤلية للقضية الفلسطينية ومستقبل الوطن المحتلّ، وهذه هي التي وجدناها من خلال تنبؤات الكاتبة في حيّز غير قليل من الثنائية التي تجري على لسان شخصياتها الروائية المختلفة؛ إذ ترجو زوال الاحتلال وتحرير الوطن من أيدي الظالمين، واسترجاعه إلى أهله اعتماداً على التوحّد والتضامن.

## BBB

### المصادر والمراجع

#### ❁ القرآن الكريم

- ١- ابن منظور، محمد بن مكرم. (١٩٨٨م): *لسان العرب*. (ط٢). بيروت: دار إحياء التراث العربي.
- ٢- أبو بشير، بسام. (٢٠٠٧م). «جماليات المكان في رواية باب الساحة لسحر خليفة». مجلة الجامعة الإسلامية (سلسلة الدراسات الإنسانية)، المجلد الخامس عشر. العدد الثاني. غزة: جامعة الأقصى.
- ٣- إسماعيل، عز الدين. (١٩٦٦م). *الشعر العربي المعاصر قضاياها وظواهره الفنية والمعنوية*. بيروت، لبنان: دار الثقافة.
- ٤- أيوب، محمد. (١٩٩٦م). *الشخصية في الرواية الفلسطينية في الضفة الغربية وقطاع غزة ١٩٦٧-١٩٩٣*، رسالة الماجستير في النقد والأدب الفلسطيني الحديث.
- ٥- الجبوري، يحيى وهيب. (٢٠٠٨م). *الحنين والغربة في شعر العربي (الحنين إلى الأوطان)*. (ط٢). عمان: دار مجدلاوي.
- ٦- الجيوسي، سلمى الخضراء. (١٩٩٧م). *موسوعة الأدب الفلسطيني المعاصر*. (ج٢). بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر.
- ٧- حسين، سليمان. (١٩٩٧م). *الطريق إلى النصّ مقالات في الرواية العربية*، دمشق: اتحاد الكتاب العرب.
- ٨- حور، محمد إبراهيم. (١٩٨٩م). *الحنين إلى الوطن في الأدب العربي حتى نهاية العصر الأموي*، (ط٢). الكويت ودوبي: دار القلم.
- ٩- خليفة، سحر. (١٩٩٩م). *الصَّبَّار*. (ط٢). بيروت: دار الآداب.
- ١٠- \_\_\_\_\_ (٢٠٠٨م). *عباد الشمس*. (ط٢). بيروت: دار الآداب.
- ١١- الخليلي، مهاروحي إبراهيم. (٢٠٠٧م). *الحنين والغربة في الشعر الأندلسي، عصر سيادة غرناطة: ٦٣٥ - ١٨٩٧ هـ*، رسالة الماجستير في اللغة العربية: جامعة نجاح الوطنية، فلسطين.
- ١٢- الشامي، حسان رشاد. (١٩٩٨م). *المراة في الرواية الفلسطينية (١٩٦٥-١٩٨٥م)*. دمشق: منشورات اتحاد الكتاب العرب.
- ١٣- شعبان، بثينة. (١٩٩٩م). *١٠٠ عام من الرواية النسائية العربية*، (ط٢). بيروت: دار الآداب.
- ١٤- الصالح، نضال. (٢٠٠٤م). *نشيد الزيتون، قضية الأرض في الرواية العربية الفلسطينية*. دمشق: منشورات اتحاد الكتاب العرب.
- ١٥- العيلة، زكي. (٢٠٠٢م). *المراة في الرواية الفلسطينية*، رسالة الماجستير أدب ونقد، القاهرة: جامعة عين شمس.
- ١٦- غركان، رحمن. (٢٠١٠م). *المنهج التكويني من الرؤية إلى الإجراء*. (ط١). بيروت: مؤسسة الانتشار العربي.
- ١٧- كاظمي جزستاني، اعظم. (١٣٨٧هـ.ش). *الوطنية والوحدة في شعر محمود درويش*. (رسالة الماجستير في الأدب العربي): جامعة إصفهان.

- ١٨- كرم، أنطون غطّاس. (٢٠٠٤م). **في الأدب العربي الحديث والمعاصر**، بيروت، لبنان: دار النهار للنشر.
- ١٩- محمد حسين، محمد. (١٩٨٤م). **الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر**. (ج١). (ط٧). بيروت: مؤسسة الرسالة.
- ٢٠- معتصم، محمد. (١٩٩١م). **الخطاب الروائي والقضايا الكبرى (النزعة الإنسانية في أعمال سحر خليفة)**، اتحاد كتّاب الإنترنت العرب.
- ٢١- وهبة، مجدي والمهندس كامل. (١٩٨٤). **معجم المصطلحات الأدبية في اللغة والأدب**. (ط٢). بيروت: مكتبة لبنان.
- ٢٢- يعقوب، إميل وبسام بركة، ومي شيخاني. (١٩٨٧م). **قاموس المصطلحات اللغوية والأدبية عربي-إنكليزي-فرنسي**. بيروت: دار العلم للملايين.

### المواقع الإلكترونية:

- ٢٣- آل مبارك، عبدالله بن ناجي: **قراءة في مفهوم الانتماء الوطني**، ٢٠١١م.  
<http://www.al-islam.com/Content.aspx?pageid=1210&contentid=952>
- ٢٤- الأسطة، عادل: **الدراسات الألمانية حول الأدب الفلسطيني**  
[www.najah.edu/file/Essays/arabic/Adel%20Usta%20Essays/114.doc](http://www.najah.edu/file/Essays/arabic/Adel%20Usta%20Essays/114.doc)
- ٢٥- أسماء المرشحين لنيل جائزة البوكر لسنة ٢٠١٠م.  
[www.arabicfiction.org](http://www.arabicfiction.org)
- ٢٦- جابر، غناية: **سحر خليفة: أدبي واقعي من الناس وإلى الناس**، ٢٠١٠م.  
<http://www.dalilmag.net/?main=&part=1>
- ٢٧- الروائية **سحر خليفة ترفض تقاسم جائزة سيمون ديفوار مع كاتبة إسرائيلية**، ٢٠١٠م.  
<http://www.albwady.com/vb/showthread.php?t=6024>
- ٢٨- **الفلسطينية سحر خليفة تحوز جائزة نجيب محفوظ**، ٢٠١٠م.  
[www.almotamar.net/news/37857.htm](http://www.almotamar.net/news/37857.htm)
- ٢٩- كريم، عالية: **سحر خليفة صوت قوي وحضور ملموس**، ٢٠١٠م.  
<http://www.maakom.com>
- ٣٠- لحرش، نورة: **الروائية العربية الكبيرة سحر خليفة**، ٢٠٠٩م.  
<http://www.shathaaya.com/go/index.php?uid=61>
- ٣١- محيسن، تيسير: **إسهام المجتمع المدني في تفعيل دور التنوع الثقافي في التنمية المستدامة**.  
[www.pncecs.org/ar/mn/st/laka%derasea.doc](http://www.pncecs.org/ar/mn/st/laka%derasea.doc)